في الأدب العراقي

ديوان الحبوبي

للدكتور زكي مبارك

حق الأدب على الأديب — خطبة لمبسون وخطبة تشرشل — إنتقام الغزالي — الحبوبي بين الشعر والتدريس — لمحات من شاعرية الحبوبي — مراجع — شهيد الدفاع — الشاعر المصري المجهول أحمد زناتي

حق الأدب على الأديب

بعد أن فرغتُ من مقالي عن « الصحافة العراقية » وقدمته لمطبعة الرسالة جاءت الأخبار بانقلاب جديد في العراق ، وهي أخبار آذنتني أشد الإيذاء ، لأني أتمنى في كل وقت أن يعيش العراق في هدوء واطمئنان ليفرُغ لتحقيق ما يصبو إليه من التفوق في ميادين العلم والأدب والاقتصاد

وكان من أثر ذلك الانقلاب وأثر اشتداد الأزمة الدولية أن أمسكت عن حديث الأدب إلى أن تنكشف الغُمّة هنا وهناك فنجد ويجدون مساغاً للكلام عن الأدب والبيان

ولكني رجعت فنظرت في حق الأدب على الأديب ، ومن حق الأدب الذي نتشرف بخدمته أن نجعل الهيام بتقييد أوابده فرضاً من أوجب الفروض فلا نسكت عنه ولو آذنت أشراط القيامة بسقوط السماء على الأرض ، والله الحفيظ من مكاره هذه الأيام ... !

فمن طاب له أن يعجب من اشتغالنا بالأدب في أوقات لا يُشتغل فيها الناس بغير أخبار الحروب فليعرف أن للأدب ميداناً لا يقلّ خطراً عن ميدان القتال ، وقد شاءت المقادير أن نكون جنوداً في الميدان الأدبي ، فمن واجبنا أن نقف صادقين في ذلك الميدان ، وأن نتناسى ما سواه من الميادين ، وإن كان تناسي ما يهدد مصر والشرق من المستحيلات

ولو شئت لقلت إن روح الغزالي ينتقم مني . ففي كتاب « الأخلاق عند الغزالي » تنديدٌ بالرجل الذي غرق في خلوته وانقطع لأوراده ، والدنيا من حوله تضجّ بثارة الإفرنج على بيت المقدس ، وتذكّره بالواجب في الدعوة إلى الجهاد

الآن عرفتُ أن العلماء والأدباء لا يصورون عصورهم أصدق التصوير من النواحي السياسية ، وإنما يصورونها من النواحي العقلية والروحية ، فأنا لا ألتفت التفاتاً جِدّيًّا إلى أخبار الحرب ولا يهمني أن أدوّن ملاحظاتي على ما أقرأ من أقوال الزعماء ، وإنما أوجه جهودي إلى متابعة الحياة الأدبية والفلسفية عساني أصل إلى أشياء يستنير بها روحي وعقلي

أليس من العجب أن تستهويني خطبة السير لمبسون عن القديس جورج أكثر مما استهوتني خطبة المستر تشرشل عن مراحل الحرب في لوبيا والبلقان ، مع أن الظروف توجب أن يكون اهتمامي بالخطبة الأولى أقل من اهتمامي بالخطبة الثانية ؟

كان في خطبة لمبسون فكرة فلسفية آذنتني بأنه يسايرنا في آفاق الأرواح والعقول ؛ أما خطبة تشرشل فتسير في طريق لست منه وليس مني ، لأني بعيد كل البعد عن آفاق السياسة والحرب ، ومن الخير ألا يبلى خطبة تشرشل غير من يشتركون في توجيه دفة السياسة والاستعداد لدفع أخطار الحرب ، فهم المسئولون عن وعي الدقائق من هذه الشؤون

وليس معنى هذا أني أفاضل بين ميدان وميدان ، فجميع الميادين أمام الواجب سواء ، وإنما أقول بأن الاشتغال بالأدب التصرف لا يعدّ انسحاباً من المعترك السياسي ، ولا هرباً من الإصاخة لدعوة الواجب عند احتدام الخطوب ، فقد أعدّنا الوطن لفروض لا تقل أهمية عن السياسة والحرب ، وهو لن يطالبنا بغير الوفاء لتلك الفروض ، وسيرى كيف نكون عند ظنه الجميل إن أشار بإغماد الأقلام وإشهار السيوف ، فلنا سواعد وعزائم وقلوب ، ولن تضام مصر وهي موصولة النسوّة برجال أقوياء يمدّون بالألوف وألوف الألوف

أما بعد ، فإن الأخبار السود التي أطالعها في الصباح والمساء لن تصدّني عن الواجب الذي أعدني له وطني ، وهو خدمة الأدب في مصر وفي سائر الأقطار العربية ، وأنا ماض في أداء ذلك الواجب مهما اعتكرت الظروف

فما حديث اليوم ؟

ومن الأديب الذي نلوذ بماضيه الهادئ فننسى أو نتناسى

ما يحيط بنا من متاعب لا يتجاهل وقعها الأليم إلا من قُدَّ قلبه من الصخر الجلمود ؟

الحبوبي

نحن أمام ديوان طُبع في بيروت سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م على نفقة الحاج عبد المحسن شلاش ، والشاعر هو السيد محمد سعيد حبوبي « أشعر شعراء الشرق أمس وأكبر علمائه اليوم » كما كُتب في صدر الديوان ، فمن هو بين الشعراء والعلماء ؟

إن العبارة التي رُقِّمَتْ على صدر الديوان تشهد بأن الرجل واجهَ لونين من ألوان الحياة الفكرية ، فعاش أولاً للشعر ، ثم انقطع للعلم ، وبذلك طغت شخصيته العلمية على شخصيته الشعرية ؛ فإن انتهى بنا البحث إلى القول بأنه كان من الطبقة الثانية أو الثالثة بين الشعراء فسيصدُق أقوامٌ حين يقولون بأنه كان في صدر الطبقة الأولى من العلماء ، وهل من القليل أن يسمو العلم بالحبوبي فيحفظ له ضريحاً في رحاب الحرم الحيدري بالنجف ؟

ولكن كيف هجر الحبوبي حياة الشعر وانقطع للعلم والتعليم مع ذلك الحظ من الفطرة الشعرية ؟

يرجع السبب فيما أفترض إلى الرغبة في التفوق ، وكان الحبوبي يعرف في سريرة نفسه أن طاقته العلمية أقوى من طاقته الأدبية . وفي المقدمة التي كتبها الشيخ عبد العزيز الجواهري لديوان الحبوبي عبارة تشهد بأنه كان مفهوماً أن الحبوبي لا يقدر على مسايرة شوقي وحافظ وزكي وصبري ، وهم شعراء وصلت قصائدهم إلى العراق في ديباجة مصقولة لم يسبق لها نظير في الشعر الحديث ، ولا تسهُل محاكاتها على رجل يعيش في بيئة تأخذ زادها الأعظم من أقوال النحاة وقضايا الفقه والأصول

على أنه لا موجب للتكلف في البحث عن الأسباب التي قضت بانتقال الحبوبي من ميدان الشعر إلى ميدان التدريس . فالرجل فيما يظهر كان يميل إلى إيثار الحياة العلمية ، وكان الناس من حوله يطيب لهم أن يروه من أعاظم العلماء ، إن صح أن البيئة التي سكن إليها وسكنت إليه كانت تملك صرفه عن الانخراط في سلك أكابر الشعراء ، لو أرادت به شياطين الشعر غير ما يريدون !

والواقع أن البيئة التي أحاطت بالحبوبي كانت ترجو أن يظفر بأعظم الحظوظ من الشاعرية ، ولكن الرجل عرف ما يملك من الطبع ، فلم يجاوز ما يطيق إلى ما لا يطيق ، وإن أثقله محبوه بأضخم الألقاب

والواقع أيضاً أن الحبوبي الشاعر أضاعته الحياة الفقهية ، وهي حياة لا يرتفع معها شعر ولا خيال ، وإن كانت في ذاتها من أجل الحيوات ، وهل تعز الشاعرية على من يسمقه الروح بمثل هذا المتاف

إسقني كأساً وخذ كأساً إليك ... فلذيذ العيش أن نشتركا
وإذا جدت بها من شفتيك ... فاسقنيها وخذ الأولى لكا
أو فحسبي خمرة من ناظريك ... أذهبت نسكي وأنحت منسكا
وانهب الوقت ودع ما سلفا ... واغتنم صفوك قبل الرنق
إن صفا العيش فما كان صفا ... أو تلاقينا فقد لا نلتقي

وقد فتن الشاعر بهذا المعنى فأعاده بأسلوب آخر حين قال :

يا غزال الكرخ وا وجدي عليك ... كاد سري فيك أن يهتكا
هذه الصهباء والكأس لديك ... وغرامي في هواك احتنكا
فاسقني كأساً وخذ كأساً إليك ... فلذيذ العيش أن نشتركا
أترع الأقداح راحاً قرقفا ... واسقني واشرب أو اشرب واسقني
فلماك العذب أحلى مرشفاً ... من دم الكرم وماء المزن[1]

إن الشاعرية لا تعز على من يسمقه الروح بمثل هذا المتاف ولا تعظم على من يزور داراً في بغداد فيروعه ما عند أهلها من صباحة الوجوه وطهارة القلوب فيقول :

فلست أدري أألمي فيهم غزلاً ... لما رأيتهم أو أنشئ المدحا

إن الفقه هو الذي وأد الشاعرية في صدر من كان يجيد مثل هذا النشيد :

رويداً سائق النوق ... فما ودعتُ معشوق
فبالأحداج لي رشأٌ ... رمى سهماً بلا فوق
بسهم اللحظ يرشقني ... وقلبي جِدُّ مرشوق
كأن القلب يوم سرى ... هوى من فوق عيّوق

(١) المعروف أن الحبوبي لم يشرب الخمر حتى يجيد فيها القول ، ولكن الحاج عبود شلاش حدثنا أن الحبوبي كان له إخوان في بغداد

فليت العيس مارحلت ولا قامت على سوق
فقد خفّت بمنبلج من اللألاء مخلوق

والبيت الأخير من وثبات الخيال

الفقه هو الذى أضاع صاحب هذا الهتاف :

يا حامل الوردة ما ألطفك ! فهل ترى لى اليوم أن أرشفك ؟
يا وردة الناظر بالله قل بهذه الوردة من أتحفك ؟
لا أقطف الورد ، ولكننى
قد كدت من روضك أن أقطفك

وخلاصة القول أن الحبوبى كان آية فى قوة الطبع ، ودقة الذوق ، ولكن الفقه جنى عليه فلم يحفظ له مكان بين أكابر الشعراء

مراجع

رأى القارئ فى صدر هذا المقال أنى ضيّق الصدر بسبب ما يثور من الأزمات الدولية ، وقد حاولت أن أنتفع بفرصة الكلام عن الحبوبى فأسوق طوائف من البحوث المتصلة بتاريخ الشعر العراقى فى العصر الحديث ، ولكن الحوادث صدتنى عما أريد ، فلم يبق إلا أن أوجه نظر القارئ إلى المراجع التى تساعد على فهم شاعرية الحبوبى ، وأهمها بعد الديوان كتاب « العقد المفصل » ففيه أخبار كثيرة عن الحبوبى ، وفيه إشارات تشرح بعض الغوامض من ذلك الديوان

شهيد الرفاع

هذا عنوان قصيدة نظمها معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى فى رثاء الحبوبى ومن هذه القصيدة نعرف أن الحبوبى كان نهض إلى الدفاع فى المحرم سنة ١٣٣٣ « ١٩١٥ » فأجابه خلق من أهل الفرات والأقاليم الجنوبية وسار بهم إلى (الشعيبة) ولكنهم أصيبوا بالخذلان فعاد إلى الناصرية ورابط فيها إلى أن مات فى عشية الأربعاء ثانى شعبان سنة ١٣٣٣

ومعنى ذلك أن الحبوبى لم يكتف بالنزلة الأدبية والعلمية فتسامت نفسه إلى الاتسام بوسم الجهاد

وقصيدة الشبيبى فى رثاء الحبوبى تضمّنت إشارات إلى أغراض سياسية يضيق عنهما هذا الحديث ، وفيها نفحة من قصيدة شوقى فى « الأندلس الجديدة »

زنانى

مرت إشارة إلى الشاعر زنانى عند الحديث عن الشعراء الذين عجز عن مجاراتهم الحبوبى ، فمن هذا الشاعر المصرى المجهول؟

هو الشيخ أحمد زنانى ، أحد أساتذة اللغة العربية ، وكان الشاعر الثانى بعد شوقى فى نظر أستاذنا الشيخ محمد المهدى ، وكنا نحفظ له فى عهد الحداثة قصيداً نخاله مبتدأ بهذين البيتين

أرِقتُ وأصحابى خليّون نُوَّمُ وما أنا ذو شوقٍ ولا أنا مُغرَمُ
ولكنّ همًّا بين جنبىّ شبَّهُ علىّ ذوو القربى عفا الله عنهمُ

وقد أرجع إلى البحث عن آثار هذا الشاعر بعد حين ، الشاعر الذى جهله المصريون وعرفه العراقيون .

زكى مبارك

اضمحلال القوى
ان الأعصاب الموطئة تسبب الكآبة وانقباض النفس وتلاشى نشاط الرجولة قبل الأوان « سرعة النزر سثانيا الناسلية » ولكن بعد اجراء ابحاث علمية مستفيضة مدى عدة سنين ، نجح جناب العالم الاخصائى فى المسائل الناسلية الدكتور ساجنوس لصير شفلد فى ايجاد وسيلة فعالة لمكافحة هذا المرض وبعد الاختبار والتجربة الكافية يقدم للجمهور مستحضر : لوكوتيطس والحاوى مستحضر علمى يحتوى بكيفية مضمونة على الهرمون الحقيقى لتجديد الشباب بحالة تامة مفاعلة ويعمل دائما تحت رقابة المعهد الرسمى للتناسليات بمدينة برلين . اقرأ الكتيب العلمى « الحياة الجديدة » فهو يعلمك كثيرا من الأمور التى قد تجهلها الى الآن عن الحياة الناسلية وترسل النسخة الانجليزية او الفرنسية مجانا برسوم ذات خمسة الوان نظير ٥ والنسخة العربية ٣ جلانفهورميين : صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر
اضطراب ... زيارة الحاسة قابلة للشفاء بواسطة العلاج العلمى الحديث النافع الكتيب العلامة ساجنوس لصير شفلد
مجانا سرفقار طابع بجميع طلبات نسخ مجانا من كتاب الحياة الجديدة
اقطع هذا الكوبون وارسله الى صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر
(س . ت ٥٢٢٧)